

الفلكلور جذور المسرح

محمود الزيودي*

تشكلت أفكار ومواضيع المسرحيات الأولى من حكايات فلكلوريّة في المجتمع الإغريقي والروماني . كثير من هذه الحكايات رواها العبد اليوناني ايسوب بين عامي ٦٢٠ و ٥٦٠ قبل الميلاد ضمن العديد من الحكايات والأساطير عن الشمس والرياح والأرنب والذئب والغراب والثعلب وغيرها ... استلهم منها الكاتب البرازيلي فيجويرو مسرحيّة العنب الحامض وعرضت في أغلب عواصم العالم وترجمت إلى العربية وعرضت في عمان ودمشق والقاهرة ... نهل كتاب مسرح كثير من نبع الفلكلور إياه ... فالمرويات التاريخيّة والشعبيّة ألهمت وليام شكسبير ليكتب مسرحيات هاملت وماكبث ويولويس قيصر وروميو وجولييت ... والأخيرة حكاية شعبيّة شائعة في أوروبا عن العداء العائلي في إيطاليا الذي حرم الشاب روميو من حبيبته جولييت وهي حكاية فلكلوريّة تردت في أوروبا وانتقلت من بلد إلى بلد رغم اختلاف اللغة .



*باحث وفنان اردني



شاهد الابن امرأة المضيف العاقر تغرز إبرة في راس طفل ضرتها (الزوجة الثانية للمضيف) حتى غيبتها داخل دماغه . مات الطفل وأصرت والدته على اتهام ضرتها العاقر بقتل رضيعها . وبسبب غموض الجريمة وغياب علم التشريح الجنائي . قرر المتخاصمون أن يرحلوا إلى الزيايدي ليقتضي بينهم . ورافقهم ابن الزيايدي وهم لا يعرفونه إلا ضيفاً عابراً . وتحقّى في مجلس والده معتمداً على لثامه . اقترح الزيايدي على والدته الطفل أن تتجرّد من ملابسها بين الرجال وسيحكم لها على ضرتها القاتله . رفضت الأم وشتتت الزيايدي لاقتراحه . طرح الأمر نفسه على الضرة المتهمة بالقتل مقابل براءتها من الجريمة . فوافقت ورفعت ثوبها حتى الخصر وسارت بين المتخاصمين فحكم عليها الزيايدي بالجريمة مما أثار حفيظة أهلها الذين اتهموه بفضح عرضهم وتجريم ابنتهم . كشف الزيايدي لابن لثامه وأخبر الجميع بصحة حكم والده وطلب اليهم نبش قبر الطفل وإخراج الإبرة من دماغه . ولم يعد يعارض والده في مهنته ... لاشك أن الحكاية مصنوعة ومقتبسة . فقد استلهمتها في حلقة من مسلسل محاكم بلا سجون الذي وثقت به القضاء البدوي من خلاله في ستين ساعة درامية جرى بثها من قبل أغلب محطات التلفزيون العربي ... وبعد زمن شاركت مع زملاء في مهرجان بغداد المسرحي .. شاهدت للمخرج اليماني صفوت الغشم مسرحية بعنوان (الحكمه يمانية) ومع بعض الفنانين الأردنيين الذين مثلوا أدواراً في حلقة الزيايدي التلفزيونية . كانت الحكمة اليمانية صورة طبق الأصل عن حكاية الزيايدي مع

الفلكلور العربي والمسرح

استلهم توفيق الحكيم موضوع مسرحيته (يا طالع الشجرة) من أغنية شعبية مصريه تقول كلماتها (يا طالع الشجرة هات لي معك بقرة تشرب وتسقيني بالعلقة الصيني) وقد ماثل بين الشجرة والمرأة الولود في موضوع عبثي أثار شهية النقاد في زمن عرضها ... واستفاد سعد الدين وهبه من الحكاية المصريّة عن الجن وكلام الجماد في مسرحيته (يا سلام سلم الحيطه بتتكلم) وألبس الحكاية ثوباً سياسياً جلب عليه المتاعب زمن الناصرية ... يتلخص موضوع المسرحية باكتشاف القرويين لجدار تصدر منه أصوات ويصبح هذا الجدار مزاراً للمرضى وطالبي الحلول لمشاكلهم ... تكتشف الشرطة أن رجلاً اختبأ في الجدار ويكلّم الناس ... طلبت إليه السلطة أن يبقى في جداره ويستمر بالدجل شريطة أن يحدث الزائرين بما تمليه عليه أجهزة وزارة الداخلية والمخابرات ... ولاشك أن الحكاية الشعبيّة ترحل مع القبائل الراحلة في أصقاع الوطن العربي ومن هذه الحكايا قصة الزيايدي القاضي العشائري ... وقد كتبت للمسرح والتلفزيون بأسلوب متقارب تتلخص قصة الزيايدي في أن الرجل يقضي بين البدو بمهارة وفطنة جلبتا له المتخاصمين في القضايا الصعبة من شتى الأصقاع مما أثار حفيظة ابنه وشكّه أن والده ربما يظلم خصماً دون الآخر مما سيؤثر على أمانته وعلى سمعته بين الناس ... اقترح على والده أن يتوقّف عن القضاء ... أصر والده على موقفه فغادر الابن مضارب والده ونزل ضيفاً على قبيلة أخرى في مكان بعيد جداً ... في بيت المضيف الجديد

وهي جزلة الألفاظ وتحفظ بالجرس الموسيقي لشعر الشروقي الذي أبدعه فحول شعراء البدو.. فليس من المعقول أن يبدعها شاعرها في لحظات قرار القوم بقتله ومحاولة الفتاة الحفاظ على حياته .

في المسرحية الأغريقية (العنب الحامض) يرتكب ايسوب جريمة عقوبتها القتل. يفعلها مباشرة بعد تحريره من عبودية سيده؛ ولأن سيده يعطف عليه ويقدر خدمته فقد اقترح عليه أن يعود للعبودية حتى ينجو من العقوبة؛ فالعبد ملك لسيده يعضو عنه ويدفع دية القتل أو يقتل عبده اذا ارتكب جريمة تستحق عقوبة الإعدام، بينما يقتل الرجل الحر إذا ارتكب جريمة قتل في الامبراطورية ... ولكن ايسوب يصر أن يموت حرًا لا أن يعيش عبدًا . وتفضل المسرحية على صوته الصارخ؛ أين هاويتكم التي أعددتموها لرجل حر؟ ... لا شك أن حكايات العبد ايسوب وصلت إلى القبائل العربية في بلاد الشام خلال حكم الرومان والإغريق إلى أجزاء منها ... كما أن العرب لم يكونوا بعيدين عن العروض المسرحية التي أقيمت في المسارح الكبرى بجرش وعمان وأم قيس وبصرى والبترا وهي باقية حتى زمننا هذا.

العرض الفلكلوري والعرض المسرحي

تشكل بعض الطقوس الفلكلورية الأردنية والعربية عرضاً مسرحياً تنقصه تقنيات المسرح القديم والحديث. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن معظم العروض المسرحية العالمية والمحلية اعتمدت على البداية والذروة (حيث يحدث الصراع) والنهاية التي اعتاد المسرحيون إقبال عرضهم بها، فإننا نجد تشابهاً كبيراً بين الطقوس الفلكلورية والعرض المسرحي؛ يبدأ السامر البدوي باصطفاف الرجال أمام الجمهور الجالس في بيت الشعر مع أصوات تنادي الآخرين للمشاركة، وحينما يكتمل عدد الراقصين يبدأون التصفيق المتصاعد مع تصاعد الصراخ بكلمة (دحيوه) ويصبح أحد الراقصين قائداً للمجموعة يؤدي حركات تشعل الحماس حتى تصل الرقصة إلى الذروة ثم تتوقف فجأة بصرخة من الجميع ... ويشكل غناء السامر بين رجلين أو أكثر حواراً يروي الكثير من الحكايا .. تدخل فتاة الحويشي وتؤدي رقصة أمام السامرين، وحين يتزاحم الرجال على مراقبتها يقوم شاعر السامر بحل الإشكال من خلال

تغيير طفيف . فهي تحدث في قرية . والقاتلة هي والددة الطفل الأصلية الذي أشغله صراخه عن لقاء عشيقها فقتلت ابنها لتتفرغ لغريزتها . أخبرني صفوت أن هذه الحكاية موجودة في الذاكرة الشعبية اليمينية منذ زمن طويل، وهي واحدة من حكايات ترحل مع القبائل الراحلة والقوافل التي تحمل تجارتها بين شرق الجزيرة العربية وغربها .. تتطور عبر الأزمنة بفعل الرواية المستمرة قبل ظهور وسائل التدوين . وقد أثرت في الدراما الأردنية والمسرح اليميني رغم بعد المسافة بين الاردن واليمن .

الحكاية الاغريقية في الفلكلور العربي

أولع المجتمع العربي القديم بالاستماع إلى الحكايات الشعبية وتطويرها على السنة الرواه الذين يشغلون مجالس السمر ولياليها ... ونجد أن المرويّات الاغريقية قد أثرت في الحكاية الشعبية العربية التي تتناقلها الأجيال كما هو الحال في موضوع مسرحية العنب الحامض وحكاية الفارس الشراري خلف ابن دعيجة الذي قتل في منطقة الكرك عام 1845 خلال غزوة قبلية بين الشرارات وقبائل الكرك ... تقول الحكاية :

كان خلف ابن دعيجة فارساً من فرسان الغزو القبلي مما جعله مطلوباً بالثار من قبائل كثيرة بسبب سطوته وقتله الكثير من رجال القبائل .

أعجبت به إحدى الفتيات وأحبته دون أن تشاهده أو يشاهدها . وقع خلف أسيراً في قبيلة الفتاة ، اختلف الأعداء على أوصافه فقررروا قتله ثأراً برجالهم . وقد أكد قسم منهم أنه خلف . أطلقت الفتاة من خلف الساحة وخاطبت القوم أن الأسير ليس خلف ابن دعيجة بل هو عبد من عبيد الموالي، وأنهم لن يكسبوا شيئاً بين القبائل بقتلهم عبداً من عبيد أعدائهم . وهي تقصد الحفاظ على حياته . ولكن خلف رفض هذه التخريجة وأعلن عن نفسه وأصر أن يموت فارساً اسمه خلف ابن دعيجة من أن يعيش عبداً من عبيد الموالي . ووصف حالته بالشعر :

استغفري يا بنت يام العشا شيج

من قولك اني من عبيد الموالي

انا خلف يا بنت ان يبست الريح

حمايهن لا صار بيهن جفالي

من المفيد ان نشير إلى أن الحكاية مصنوعة في بعض أجزائها . فالقصيدة طويلة

سمرهم بفعل تحليل شخصيات القرية وهو تحليل لشخصيات المجتمع نفسه. وكما في المسرح، لا يخلو العرض الفلكلوري من الكوميديا الساخرة؛ ففي ليالي سمر الفلاحين والبدو في قراهم ومضاربهم يتطوع أحد المبدعين بتقليد حركات وأصوات بعض رجال المجتمع، ويؤدي هذا الفعل المسرحي إلى الضحك أحياناً وإلى الخلاف أحياناً أخرى بسبب مبالغة المقلد لإحدى الشخصيات الموجودة في مجلس المتفرجين، وهذا يأخذنا إلى الحالة نفسها في موضوع العرض المسرحي الذي ينتقد فئة معينة أو ينتقد السلطة الحاكمة، وقد أدى هذا النقد الساخر إلى وقف العرض المسرحي في أكثر من عاصمة عربية وأحياناً معاقبة الكاتب والمخرج، وقد أجمل الكاتب علي عقله عرسان هذه المعضلة بين المبدع والسلطة في مسرحية (رضا قيصر)؛ فقد كلف المخرج أحد مساعديه بمراقبة قسّمات وجه القيصر خلال العرض المسرحي؛ فإذا كان مهتماً وراضياً يسير العرض كما هو، وإذا لاحظ فتوراً أو غضباً على وجه القيصر يقوم بتلقين الممثلين لتغيير الحوار فوراً بما يرضي القيصر، ولعمري إن هذه الحالة تشمل علاقة السلطة بالإعلام والفنون والآداب حتى يومنا هذا.

ربط الحاشي التي تتوقف عن الرقص وتقرّص أمام حلقة السامر ويتوقف الرجال عن مراقبتها؛
بوجه حمود لك قعود
بس اقضي يا زينه اقضي
يحتج شاعر آخر على ربط الحويشي وهدوء الحلقة التي تشكل عرضاً مسرحياً؛
ياللي ربطت حويشينا
يا خيي وش لك علينا
يقوم الشاعر بإطلاق الحويشي ليدبّ الحماس في حلقة السامر من جديد، وغالباً ما يكون هناك أكثر من فتاتين للحاشي تحمل كل واحدة منهن عصاة أو سيفاً للرقص وإبعاد بقية شاغلي الحلقة عن ميدان حركتهن. ويشكل طقس الحصاد عرضاً مسرحياً بالغناء وحركة المناجل والمرأة في الخلفية التي تجمع غمور الزروع وتزغرد لتشجيع الحصادين؛ وهو طقس شائع في الوطن العربي استلهمه الكاتب والمخرج الراحل محمود دياب في مسرحية بعنوان ليالي الحصاد، نقل أحداثها من الحقل إلى مجلس سمر الحصادين الذين يتحدثون عن كل شيء يحدث في قريتهم مما يعري كثيراً من الشخصيات بما فيهم صنيوره التي عشقها كل الحصادين ثم نبذوها في ليلة

